شعر الفروسية

يختلف شعر عنترة الحماسي عن شعر كثير غيره من شعراء الفروسية، فهو يتحدّث أغلب الوقت عن نفسه، وعن كلّ ما كان يقوم به من طعنٍ وضرب. بينما نجد عمرو بن كلثوم مثلاً يلجأ إلى الحديث عن الفروسية الجماعية، وفي الوقت الذي يقول فيه عنترة: «أنا» يقول فيه عمرو: «إنّا». وفي هذا اختلاف كبير في التجارب التي كان يخوضها كل منهما، فقد كان عنترة يتحدّث إلينا وهو يخوض المعارك وحده في أكثر الأحيان. وكان يقول لنا:

أنا في الحرب العوانِ

غير مجهول المكان

أينما نادى المنادي

في دُجى النقع يراني

وكان هو الوحيد دائماً الذي يقحم جواده ونفسه في المواقف الحَرِجة ويذكرنا قائلاً:

ما زلت أرميهم بثغرة نحره
ولبانه حتى تسربل بالدم

ثم إنّ القوم جميعهم كانوا ينادون عنترة، ويهتفون باسمه، وتعلو أصواتهم وهتافاتهم، وهم:

يدعون عنتر والسيوف كأنها
إيماض برق في السحاب الركّم
يدعون عنتر والدماء سواكب
تجري بفياض الدماء وتنهمي

ووقف محتاراً وهو في مكانه ذاك، وأخذ يفكر:

كيف التقدم والرماح كأنها
غوغا جراد في كثيب أهيم

وحتى اللّيالي ونائباتها لا ترحمه، بل إنها تتكاثر وتتكاثف، وتمضي لمحاربته دون غيره، فما كان منه إلا أن رحب بذلك العدوان، وقال لها:

حاربيني يا نائيات اللّيالي
عن يميني وتارة عن شمالي

واجهدي في عداوتي وعنادي
أنت والله لم تُلمّي بمالي
إن لي همّةً أشدّ من الصخر
وأقوى من راسيات الجبال
يا سباعَ الفلا إذا اشتعل الحر
ب اتبعيني من القفار الخوالي
اتبعيني تَرَيْ دماءَ الأعادي
سائلاتٍ بين الربى والرّمال
ثم عودي من بعد ذا واشكريني
واذكري ما رأيتهِ من فعالي

أمّا إذا استمرّت الحرب، والتحمت الفرسان بعضها بعضاً، فإنّ فروسية عنترة تبدو واضحة حينذاك، ويجدها فرصة للتحدّث عن نفسه:

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحمت
أُلفيتُ خيراً من معمٍّ مخول
والخيل تعلم والفوارس أنّني
فرّقت جمعهم بضربة فيصل

وتُروى أيضاً بطعنة فيصل، بمعنى أنه كان يطعن رئيس الكتيبة، فتؤدي تلك الطعنة إلى أن يتفرّقوا لأنه

بطل مسؤوليته أن يفرق بين القوم بسلاحه. إنه في المعارك يقوم بالدور الرئيسيّ، فهو الذي يحارب، وهو الذي يقتل وهو الذي يهزم.

أمّا إذا فرّ أصحابه من المعركة، فإنه هناك وفي مثل تلك الظروف يدعوها للكرّ، ويقودها للنصر. وفي هذه الحالة يقول:

نادَيْت عبساً فاستجابوا بالقنا
وبكل أبيضٍ صارم لم ينجل
حتى استباحوا آل عوف عنوةً
بالمشرفيِّ وبالوشيج الذبَّل

فلما يرى بنو عبس أنّ فارسهم قد وقف مكانه لملاقاة الأعداء، كرّوا بعد فرّ، ووقفوا وراءه حتى تحقيق النصر. وعند ذلك تتحدّث قبيلته عن مآثره، وتقرّ عينه، وينشد:

ولي في كل معركة حديث
إذا سمعت به الأبطال ذلّوا
قطعتُ رقابهم وأسرت منهم
وهم في عظْم جمعهم استقلوا
وأحصنت النساء بحدّ سيفي
وأعدائي لعظم الخوف فلّوا

وها هو يذكرنا بمسؤوليته العظمى وهي الدفاع عن النساء، حتى يجنبهن السّبي الذي كان شائعاً بين القبائل العربية، وكانت كل قبيلة تخوض غمرات الموت للدفاع عنهنّ. ويذكر وهي في غمار هذه الوقائع ما يقوله عنه الآخرون، فيقول معتدًّا بنفسه:

أنا العبد الذي يلقى المنايا
غداة الرَّوْع لا يخشى المحاقا
أكرّ على الفوارس يوم حرب
ولا أخشى المهنّدة الرقاقا
ألا يا عبلَ لو أبصرت فعلي
وخيل الموت ينطبق انطباقا
سلي سيفي ورمحي عن قتالي
هما في الحرب كانا لي رفاقا

وعندما لم يقل الرجال عنه: «لله درّ عنترة» كان لا يرى بأساً من أن يقول ذلك لنفسه:

فللّه درّي كم غبار قطعته
على ضامر الجنبين معتدل القدّ
وطاعنتُ عنه الخيل حتى تبدّدت
هزاماً كأسراب القطاء إلى الورد

ولطول خبرته في القتال وإزهاق الأرواح أصبح عنترة خبيراً في هذا المجال، ولذلك فقد كان يتحدّث عن إزهاق النفوس وكأنه يناجي النجم، وكان متمكّناً من عمله ذاك حتى إنه تمكّن من اختراع تعبير مناسب لذلك، فقال:

إن تغدفي دوني القناع فإنّني
طَبٌّ بأخذ الفارس المستلئم

والطبّ كما نعلم هو الحاذق الماهر، وهذا ما ارتضاه عنترة لنفسه من وصف. ولربما احتجّ عليه كثير من الناس، وخاصّة من الأطباء لإقحامه كلمة مشابهة لمهنتهم وهم الذين همهم الأكبر الاهتمام بالنفوس ومداواة المرضى. ولكن عنترة تعدّى على هذه المهنة العظيمة بقوله في الفخر والحماسة:

يقول لك الطبيب دواك عندي
إذا ما جسّ كفّك والذّراعا
ولو عرف الطبيب دواء داء
يرد الموت ما قاسى النزاعا
حصاني كان دلال المنايا
فخاض غمارها وشرى وباعا

وسيفي كان في الهَيْجا طبيباً

يداوي رأس مَنْ يشكو الصداعا

ولم يشأ عنترة هنا أن يدّعي بأنه طبيب، ولكنه أشار إشارة خفية إلى ذلك حين جعل من سيفه الطبيب الذي يُداوي الصداع بالتخلّص من الرأس. وهذه من الأبيات التي تظهر روح الدعابة عند عنترة، وأنه ليس عابس الوجه طيلة وقوفه في ساحات المعركة، بل هو يعرف كيف يقضي وقته في السِّلم والحرب.

وللحلم أوقات وللجهل مثلها

ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب

فهو رغم ما تأخذ المعارك من وقته إلا أنه لا ينسى أن يخلد إلى نوعٍ من الراحة، والتلطّف مع الآخرين.

أكثر عنترة في شعر فروسيّته من ذكر مصارع الأبطال على يديه، وبودّي لو استطاع أحد من الإخباريّين أن يحصي عدد الأبطال الذين قتلهم عنترة في سنوات حياته الطويلة التي قضاها في الدفاع عن بني عبس. يبدو لي أن العدد لا يُستهان به، ومع ذلك فلم يحتجّ عليه أحد بأنه سفّاك دماء، أو

متعطّش لها. وبالطبع لم تكن هناك في ذلك العصر قوانين وشرائع تدين القتال والقتل، وإلاّ لما كان عنترة محبوباً إلى هذا الحدّ، ولما فخرت به الإنسانية. ولا شكّ أن الحروب لها قِيَمها وأخلاقياتها، ويكفي غرابة في ذلك أنّه كلّما زاد عدد قتلى الجنود الذين لقوا حتفهم على يديه أُعطي وساماً، وتمتلىء صدور القادة الذين أبادوا الناس وجنودهم بمثل تلك الأوسمة التي حملوها في صدورهم وهم فخورون بذلك، بيد أن عنترة عاش في زمن لم يعرف الأوسمة، ولذلك ضاعت عليه فرصة تزيين صدره بالأوسمة كما ضاع علينا عدد قتلاه من أولئك الفوارس.

ومع أن عنترة كان يؤكّد في قصائده المرة بعد الأخرى مصرع كثير من الأبطال على يده، إلاّ أنني لم ألمح أو أشعر بأنه كان قد امتلأ بالغرور. ولا أعرف عمّا إذا كنت أنا وحدي الذي لا يشعر بغرور عنترة، وثقته العالية في قدراته أم أن كل مَنْ يقرأ شعره يشاطر في نفس الشعور. إنّ اللاعب في ميدان كرة القدم إذا سجل هدفاً ملأ الغرور جسمه من أخمص قدميه إلى قمّة رأسه، وذرع الميدان داخله وخارجه في فرحة وغرور وهو يتقبّل التقدير والإشادة. أمّا عنترة، فإنه

يصرع الأبطال، ويقتل الأقيال، ويهزم الفرسان ثم يعود إلى بيته ليحدّث بذلك عبلة وحدها، ويقول لها دون أن يُسمع جاراتها:

يا عبل لو أني لقيت كتيبة

سبعين ألفاً ما رهبت لقاها

وأنا المنية وابن كل منية

وسواد جلدي ثوبها ورداها

وبعد أن يُسرّ إلى عبلة بما فعل، كانت عبلة أسرع الناس بإيصال هذه الأنباء إلى رفيقاتها ليعلمن بأنّها هي التي صانتهن وحفظتهن من كل خطب جسيم.

هكذا وجدت عنترة، فهو واثقٌ من نفسه، متأكّد من انتصاره، بل إنني أشعر معه بنفس الثقة، ولكن لا أرى أمامنا فارساً داخل قلبه الغرور. إنّنا مع عنترة واثقون من النصر، واثقون من الحياة. وأمّا غيرنا من الأعداء، فهم الخاسرون.

قال المتنبّي في إحدى قصائده الرائعة عن نفسه وهو يمدح سيف الدولة بأنه هو الشاعر الوحيد في ذلك العالم، وأن شعره الذي ينظمه قوّى من عزيمة كل مَنْ قرأه:

وسارَ بهِ مَنْ لا يسير مُشَمِّراً
وغنّى به من لا يُغَنّي مغرداً

إذن فمن أهمّ أعمال الشعر أنه يقوّي العزيمة، ويشجّع الناس للإتْيان بخوارق الأعمال. وكان شعر عنترة من هذا النّوع من الشعر، فهو ـ إن أردت الحقّ ـ عبارة عن موسيقى عسكريّة، ومارشات حربية، ما على المرء إلا أن ينشدها ويسير إلى المعركة فيجد قلبه صلباً، وسيفه قاطعاً، ورمحه نافذاً، وأبطال أعدائه أمامه صرعى. هكذا كان شعر عنترة: موسيقى حربية نفاذة تحمل المرء على إبادة أعدائه مهما كثروا أو شدوا من عزائمهم لمواجهته.

ولمّا كان الموقف موقف حماس وفروسية، فقد استوحى عنترة هذه المشاعر فانتقى بعض بحور الشعر العربي التي تؤجج مثل هذه المشاعر، فنرى أن كثيراً من قصائده من بحر الوافر مثل قوله:

عرفْتُ نوائب الأيام حتى
عرفتُ خيالها من حيث يسري

وبعضها من بحر الكامل كقوله:

كم فارس غادرت يأكل لحمه
ضاري الذئاب وكاسرات الأنسر

كذلك كانت معلّقته من الكامل، وكان هذان البحران من الشعر أكثر ما نظم فيهما عنترة قصائده. وكِلاَ البحرين سريع التنغيم مما يصلح مع إظهار الجلبة والضوضاء في الميدان، وضربات القلب في المعارك، وتوتّر النبض في القتال. وكنت إذا أردت أن تسير لمعركة وأنت على سرج جوادك لم يكن هناك ما يزيد من نشاطك وهمّتك وحماسك مثل قصائد عنترة، فإذا لم تجد منها شيئاً في ذاكرتك رجعت إلى المتنبّي لتسير معه مشمراً.

إنّ قصائد عنترة الحماسية تفيد المرء إن كان وحيداً في سيره إلى المعركة؛ لأن هذه المعاني والقصائد ذات وقع عظيم في رفع الهِمَم، وإشباع النفس بالثقة، بل والتهوّر أيضاً، وبذلك تؤتي أكلها في ساعات الحرب. وهذا ما جعل عنترة يُقْدِم في اقتحامه الصفوف، غير عابىء بما يخبئه القدر له. ومع أنه كان في عزلةٍ واضحة في تلك المعارك بسبب لون جلدته، إلاّ أنه كان يتّخذ من لونه ذاك تمويهاً، وكان يستعيض عن بياض الجلدة ببياض صفحة السيوف، ولمعان الأسِنّة.

ولو نظرنا إلى شعر الفروسية في الجاهلية لوجدنا أن هناك مِنَ الشعراء مَنْ أتى بمعانٍ جيّدة ربما فاقت ما

قاله عنترة، ولكنها لم تكن لتؤدّي إلى الحماس الذي تبتدعه كلمات عنترة. وأذكر معنى قاله الأخنس ابن شهاب بن شريق بن ثمامة بن أرقم أحد بني تغلب، وهو شاعرٌ جاهليّ عاش قبل الإسلام بدهر، وذكر قصيدته أبو تمام في حماسته، حيث قال هذا الشاعر:

ونحن أُناسٌ لا حِجاز بأرْضنا .
مع الغيث ما نُلْفى ومن هو غالب
فوارسها من تَغْلب ابنة وائل
حماةٌ كماةٌ ليس فيها أشائبُ
هُمُ يضربون الكبش يبرق بيضُه
على وجهه من الدّماء سبائب
وإن قصرت أسيافنا كان وصلها
خطانا إلى أعدائنا فنضارب
فللّه قومٌ مثل قومي عصابة
إذا اجتمعت عند الملوك العصائب

ومما لا ريب فيه أنّ خطاهم كانت أعظم من أيّة خطوات عسكرية لأعظم جيش، وكانت تفوق روعة خطوة الأوز العسكرية. وكانت هذه الخطوات تقصر المسافة بين الأعداء وبينهم. وكان هؤلاء يحملون سيوفاً قصيرة، وكان لزاماً عليهم أن يُطيلوها بالإقدام والتقدّم

ليزيلوا بها أعداءهم من أمامهم. وكان هذا التقدّم لا يقلّ إيذاءً للأعداء عن إقدام عنترة.

بالرغم من قوّة هذه الأبيات، وثوران معانيها إلاّ أنها لا تساعد المقاتل على إشعال الجذوة الأُولى للقتال، ويبدو فيها الكثير من الأناة والتروّي بعكس ما يثيره شعر عنترة من حماس. وبحر الطويل هذا الذي نظم فيه هذا الشاعر قصيدته يفتقر إلى صوت الطبل المتسارع الضربات، وهو ما يكون أوقع في مجال الحروب.

تقصّيت عدد المرات التي ذكر عنترة فيها عبلة أو مُناداته لها في ديوانه الذي شرحه التبريزي، فوجدت أن اسم عبلة قد ورد نحو تسعين مرّة. وكان في معظم هذه النّداءات أو الذِّكر يحدث نظرها في كل مرّة بأنه يحبّها وأنه قتل أعداءه. وخُيّل لي أن هناك بعض العوامل المشتركة بين هذين الشخصين. وكانت أهم تلك العوامل حبّ المغامرة، والرغبة القويّة في التحدّث عن المعارك، وإلا كيف نفسّر تلك النداءات المتكرّرة التي كان يطلقها عنترة لعبلة لكي تنظر إلى ما فعل من قتل. وكان عنترة يقصّ عليها ملاقاته للأبطال وهو يلهث. وكانت هي تسمع إليه وهي تحدق فيه، وتنفعل معه، وتتدافع مع حركاته. ولعلّها كانت تشمّ رائحة درعه

الذي طُلِي بخلق عرقه، ولم تر في ذلك شيئاً سوى عطر الرياحين. وكانت تستمع إليه وهي مشدوهة الحواس، وهو يصف ما لاقى، وينبّهها بين كل حينٍ وحين عندما تذهب بفكرها وخيالها بعيداً، وهي تتصوّر ما قام به من ضربٍ وطعن، ثم ما تلبث أن تستفيق على صوته، وهو ينادي:

يا عبل هل بُلّغتِ يوماً أنّني
وليت منهزماً هزيمة مدبر
كم فارس غادرت يأكل لحمه
ضاري الذئاب وكاسرات الأنسرِ
وإذا غزوت تحوم عقبان الفلا
حولي فتطعم كبد كل غضنفر

هنا يؤكّد لها عنترة أنه قتل كل فارس وغضنفر. ومما لا رَيْب فيه أن عبلة كانت في حيرةٍ من أمرها، ماذا تصدق، وماذا تنشر على الملأ من نساء القبيلة. لقد كان عنترة فارس القبيلة ووزير إعلامها والمتحدّث الرسمي باسمها. وكانت في حيرة لا تستطيع أن تجزم بأن العقبان كانت تسير في سماء عنترة لتأكل من شلو طعينه، أو جَزَر سيفه. هل كانت كل هذه الأشياء حقيقة أم أنها خيال شاعر، وأحلام جندي مقاتل، وتهاويل شاعر من

الشعراء. وكان شعراء العربية في الجاهلية والإسلام قد أُغرموا بالحديث عن النسور والقشاعم والعقبان، وهي تأكل ما بقي من جثث القتلى الذين أكلت جثثهم السباع والضباع والوحوش. وكان عنترة واحداً من أُولئك الذين أشبعوا هذه الأحياء نتيجة لحروبهم الدامية التي لم تنقطع طوال فترة الجاهلية. وممّن أحسن في وصف هذه الطيور الجارحة التي تتبع الجيوش أو العصابات المغيرة الشاعر النابغة الذبياني الجاهلي، وقد جاء قوله في مدح عمرو ابن الحارث الغسّاني:

إذا ما غزوا بالجيش حَلَّق فوقهم
عصائب طير تهتدي بعصائب
يصاحبْنَهم حتى يُغِرْن مغارهم
من الضاريات بالدماء الدوارب

ولم يخل شعر المتنبي من وصف مثل هذه الجوارح، فهو تارة يقول عنها:

يُفدّي أتمُّ الطير عُمراً سلاحَهُ
نسور الفلا أحداثها والقشاعمُ

وفي قصيدة أخرى يقول وهو يتحدّث عن الجيش:

وذي لَجبٍ لا ذو الجناح أمامه
بناجٍ ولا الوحش المثار بسالم
تمرّ عليه الشمس وهي ضئيلةٌ
تُطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجةً
تدوّر فوق البَيْض مثل الدَّراهم

ولا ريب أنّ هذه المعاني أصداء لقول عنترة في معلّقته عن ابني ضمضم اللذين أرادا قتله، فقال عنهما:

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر
للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمَيْ عرضي ولم أشتمهما
والناذرين إذا لم القهما دمي
إن يفعلا فلقد تركتُ أباهما
جَزَرَ السباع وكلّ نسرٍ قشعم

ولم يعمد عنترة في كل ما ذكره عن الجوارح إلى إبراز صورة شعرية للقارىء، ولكنه كان يسرد حقائق مرّ بها في حياته العسكرية.

كان لون عنترة الأسود في حدّ ذاته بمثابة الشكل المخيف الذي يجعل كل مَنْ رآه يرتجف فزعاً منه

وفرقاً؛ لأنه لون لم تألفه عيون كثير من فرسان الجاهلية. وكان ذلك اللّون من المفاجآت القتالية المثيرة للرعب في صدور الخصوم. وقد يمضي بعضهم بعد القتال ويقصّ على مسامع الآخرين التهاويل عمّا فعله عنترة بهم، وما نالوا من جلده الأسود. وقد رأيت أنه لم ينعت أحد من العرب عنترة بأنه أخضر الجلدة، كما فعل الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الذي وصف لون جسمه الحالك السواد بقوله:

وأنا الأخضر من يعرفني
أخضر الجلدة من بين العرب

وما زال الناس في السودان يقولون عن سواد الجلدة خضرة حين يصفون من اسْمَرَّ لونه كثيراً. أمّا إذا كان شديد السواد، فإنهم يصفونه بأنه أزرق؛ ولربما كان عنترة أخضر اللّون، ولكن كان العدنانيّون في صحراء نجد لا يستعملون الخضرة، واكتفوا بالسّواد.

وعندما يخلد الناس إلى الراحة في قراهم، ويحلّ وقت السمر تنقلب أخبار الغزوات إلى تهاويل تقصّ كيف أن الفارس ذا الجلدة السوداء قد ركب جواداً أدهم، وتدثر بدروع وضاءة، وبدأ إغارته قبل الفجر،

وقد حمل رمحه الطويل، وسيفه الصقيل، واخترق الفيافي، فإذا به يثير الرعب في نفوس الكبار والصغار، والنساء والفتيات. وبهذه التهاويل الخرافية والأوهام كان عنترة يدخل في معاركه وقد سجل انتصاراً نفسيًا قبل أن يسجّل انتصاراته العسكرية، وذلك حين يقرعُ السلاحُ السلاحَ.

وكان الفرسان الذين يخاطبون عنترة عند الاقتتال يشعرون نحوه بمزيج من الرهبة والكراهية. وكانوا يرهبون طعنات سنانه، وضربات صارمه كما كانوا يمقتونه لأنه أسود، وليس في عدد كبير من أبناء جلدته؛ إذ كان هو الأسود الوحيد في فرسان المعركة. لم يكن معه رفاق من «أبناء جلدته» على حدّ ما جاء في التعبير العربي الصريح. ومع ذلك، فإنه كان يفوقهم في قدراته القتالية، وشجاعته الفائقة. وكان هذا التعبير الجاهلي، ونعني به «أبناء جلدتهم» قد اخترعه الجاهليون ليظهروا الفرق بينهم وبين عنترة وأمثاله من ذوي اللون الأسود. ونجد في أخبارهم ما يؤيّد القول عن الرهبة والخوف والمقت فيما جرى من أحداث مع عنترة في حياته.

حفظ لنا الإخباريّون شيئاً عمّا كان يدور من قتال بين عنترة وحصين بن ضمضم الذي جاء ذكر أبيه في

المعلّقة. وكان ذلك في أيام داحس والغبراء التي ذكرت بكاملها في غير هذا الموضع. وفي معركة من تلك المعارك حمل عنترة على حصين بن ضمضم، وطعنه برمحه فسقط عن فرسه، وعندها أسرع رفاق حصين وحملوه على فرسٍ آخر غير فرسه الأوّل الذي أخذه عنترة. واتّفق حصين ورفاقه على أن يحملوا على عنترة حملة رجل واحد، ويفاجؤوه بكثرتهم فلا يستطيع التغلّب عليهم. ومرّ عنترة بين الصفين عسى أن يخرج إليه مبارز على ما يبدو، فما كان من حصين بن ضمضم إلاّ أَنْ أسرع هو ورفاقه في هجوم مفاجيء نحو عنترة. وفي حركة مباغتة من وسط أُولئك الفرسان المهاجمين أرسل حصين رمحه إلى وجه عنترة وطعنه، وانهمرت الدماء من وجه عنترة، وسُرَّ حصين سروراً عظيماً بذلك إذ اعتقد أنه فقأ إحدى عيني عنترة؛ فارتدّ عنترة متقهقراً من أثر تلك الطعنة، وعاد إلى صف بني عبس. ثم هجمت فزارة على مَنْ كان هناك من بني عبس، واستطاع دريد بن ضمضم أن يقتل معاوية بن شداد عمّ عنترة، وفرحت فزارة بذلك، وقال حصين يذكر تلك الأحداث:

أمّا بنو عبس فإن زعيمهم

حلّت فوارسه فأفلت أعورا

لما رأيت العبد وسط صفوفنا
متكرّراً أكرهتُ فيه الأسمرا
فرددت عن جمع السراة سوادَه
ورددته عن صفِّ مُرّة أعورا
لما رأى فرسان مرّة والقنا
لم يستطع لقناهم أن يصبرا
تركَتْ بوجه العبد طول حياته
أرماحُ مُرّة والأسِنّة منظرا
وتركن في كَرّ الفوارس عمّه
شِلواً بمعترك الكماة مجزَّرا

وعندها بدأ الهجوم العام من الصفّين ـ العبسي والفزاري ـ وكان على عبس ملكها قيس بن زهير الذي بدأ الهجوم، وضرب دريد بن ضمضم بالسيف فصرعه، وتمكّن عنترة أثناء ذلك التلاحم من مسح الدَّم عن وجهه، وكرّ على حصين، فلمّا رآه حصين ولّى من أرض المعركة، وترك أخاه دريداً. غير أن عنترة أسرع وراء حصين حتى أدركه، فطعنه بالرمح وقد كان مدبراً، فوقع سنان الرمح في مقعدته، فألصق بالسرج. ثم إن عنترة واجه حصيناً وحمل عليه وهو يقول، وكأنه قد عرف ما قال حصين حين طعنه في وجهه:

اصبر حصين لمن تركت بوجهه
أثراً فإني لا إخالك تصبرُ
ما سرّني أن القناة تحرّفت
عمّا أصابت من حجاج المحجر
إن الكريم ندوبه في وجهه
وندوب مرّة لا تُرى في المنحرِ
لكنَّ في أكتافهم ونحورهم
فبذاك فافخر بئس ذاك المفخر

وانتهت المعركة دون أن يستطيع أحد من الخصوم شفاء غليله من خصمه الآخر، فما استطاع أبناء ضمضم قتل عنترة رغم النذر الذي أخذاه على أنفسهما، ولم يستطع عنترة أن يقتلهما لأن الأجل لم يحن، ولا قُدِّر له أن يقتل دريداً الذي كان موته بسيف الملك قيس ابن زهير.

على قدر ما وصف عنترة نفسه بأنه عبد في أحاديثه، إلا أنه شعر بشيءٍ كثير من المضاضة والذهول المشوب بالاشمئزاز، وهو يسمع الحصين بن ضمضم يتحدّث عنه في شعره وينعته بالعبد. ولم يكن حصين وحده هو الذي نعته بذلك اللفظ، ولكنه كان واحداً من كثيرين آخرين. وبالتأكيد، فإن كل قارىء لهذه الأبيات

يمتلىء فمه بقذارة هذا اللفظ الذي تفوّه به حصين، وكان أحسن ردّ له طعنه بالرمح، وكانت تلك الطعنة هي التي ربما هدّأتْ من خاطر عنترة الذي أُصيب بجرح كاد أن يُودي بإحدى عينيه ليصبح أسود أعور، ويكثر التندّر عليه والسخرية.

إن وصف الفرسان الجاهليين لعنترة بأنه عبد كافٍ أمر لا يخلو من إسفاف وغلوّ في شتم عنترة. ولم يجد أُولئك الفرسان ألفاظاً نابية أكثر من لفظ «عبد» الذي كان له أسوأ وقع في نفس عنترة، ومن هنا كان تكرار عنترة لذكر أنه العبد الذي يعرفه سائر الناس، كان يتلفّظ بعبوديته حتى يسقط في حساب الآخرين عبوديّته، ولن يبقى لديهم ما يعيّرونه به. نعم إنه عبد، وإنه ينادي بأعلى صوته إنه عبد، ثم ماذا بعد ذلك. ماذا يريد حصين وإخوانه وأبوهم منه. إنه عبد، ولكنه فارس عظيم لا يُدانيه أحد منهم، يقتلهم ولا يقتلونه، ويعيش بعدهم ليخبر الآخرين بما حدث بينهم وبينه من قتال.